

وتلقت النظر العلاقة التي تقوم بين مجتمع يفكر من خلال مؤسساته ، ومجتمع ينتقد وجود هذه المؤسسات ويعاني من عجز عن التفكير . فالعلاقة التي تقوم تذكرنا بالعلاقة بين قطب موجب وآخر سالب : حيث لا بد أن يتدفق التيار من الأول إلى الآخر . ونوجز القول : إن قوة مجتمع ما إنما تتجسد ، في النهاية ، بما لدى هذا المجتمع من قدرة على التفكير ، ومن مؤسسات تنظم صنع هذه القدرة وتمكّن من حشد طاقات المجتمع وتوظيفها في عملية التعامل مع المجتمعات الأخرى . وإن ما يصدق على المجتمعات ، في هذا الصدد ، يصدق على الأفراد . فالفرد الذي يفكر بطريقة علمية صحيحة هو فرد قوي قادر ، وهو في علاقته مع مثيله ند ، وفي علاقته مع آخر لا يفكر متفوق وقائد .

لا بد لنا ان نشير هنا إلى الصلة الوثيقة القائمة بين عملية التفكير ومناخ الحرية الفكرية الذي تترعرع فيه . فهذا المناخ يشجع على الابداع وعلى الخروج من أسر التقليد ، ويتيح للزهور أن تتفتح .

إن تعطيل الفكر عن القيام بدوره ، سواءً على صعيد الفرد أو على صعيد المجتمع ، يورث مصائب ورزايا ، من بينها انعدام الثقة بالنفس ، والعجز عن الفعل ، والعيش في أوهام أخطار غامضة ، والرزوح تحت نير عقدة الأضطهاد . وفقدان القدرة على التعليل وعلى الربط بين السبب والنتيجة ، وربط الظواهر بعضها ببعض الآخر . واللجوء إلى الاطلاق وإصدار الأحكام العامة . ويمكننا أن نورد أمثلة كثيرة على كل ظاهرة من هذه الظواهر .

يلفت نظرنا عند الأفراد الذين عطلوا فكرهم خوفهم من الاتصال بالعالم الخارجي ، وتصورهم أن كل من تجاوز مجتمعه واتصل ، أو فرض عليه الاتصال ، فإنه واقع لا محالة في براثن اجهزة خفية ، وعجزهم عن طرح أية أفكار ومبادرات . فإن طرحت عليهم فكرة أو مبادرة جابهوها برد فعل يبقى أسير الشك والانفعال . وحديثهم المستمر عن مؤامرات تحاك دون تحديد لطبيعة هذه المؤامرات ولتفاصيلها ولكيفية مواجهتها ، واعتقادهم أنهم هدف لإضطهاد دائم هو السبب فيما يواجههم من فشل وما يعترضهم من عجز . وأعتقادهم الأحكام العامة والشعارات المطلقة دون بذل الجهد الفكري في تحليل الظواهر والوصول إلى نتائج محددة .

ما زالت الحياة السياسية . في وطننا العربي ، تعاني . إلى حد ليس بالقليل ، من غياب الفكر عنها : الأمر الذي يتيح لهذه العلل أن تظهر على سطحها . الناس فيها يصنفون تصنيفات عامة حسب المكان ، أو المعتقد . أو الحرفة دون تعمق . والأحداث تنسب لقوة خارجية كانت وراء صنعها ، هي ، دائماً ، قوة غامضة خارقة . والأفراد ينظر إليهم كضحايا سهلة الاقتناص سرعان ما تقع في احابيل القوى الخارجية ، أن كانوا من العرب ، وينظر إليهم كشياطين لهم قدرات الجن ، إن كانوا من أجناس أخرى . وحين نفكر في مسؤولية استمرار وجود هذه العلل نجد أن السلطة ساهمت في خلقها : وذلك بحرمانها المجتمع من مناخ صحي تترعرع فيه حرية الفكر ، ونجد أن بعض رجال الفكر قد ساهموا كذلك بمسايرتهم للسلطة رغبة أو رهبة . ولعل من أعظم ما أسهمت به الثورة الفلسطينية ، ضمن عطائها لأمتها العربية ، هو توفير هذا المناخ الصحي ، وإطلاق طاقات الثوار ليعبروا عن ذواتهم ويطلقوا العنان لأفكارهم